شعر حديث من أفريقيا

ثمة وفرة هائلة فى المؤلفات التى تعالج قضايا القارة الأفريقية جنوب الصحراء ، ولا سيما قضايا دولها المستقلة حديثاً ، ولكن هذه الوفرة تكاد تنحصر فى السياسة والاقتصاد والتاريخ . أما الأدب فيبدو أنه لا يزال موضوعاً فرعيًّا لا يحظى بهذا الاهتمام الشديد الذى تحظى به الموضوعات الأخرى السابقة . والواقع أن الأدب فى هذه المنطقة الواسعة من القارة خارج مجال لغتنا لن يحظى بما هو جدير به من اهتمامٍ مالم يتحرك الأفريقيون أنفسهم مبدعين ودارسين لنشر التراث الأفريقى – قديمه وحديثه – وتعريف العالم به ، حتى لا نظل على الدوام عالة على الأوربيين والأمريكيين فيما نكتب أو نقرأ عن آداب أفريقيا وراء الصحراء الكبرى ، خارج مجال العربية .

حقًّا هناك بعض الجهود الأفريقية التى تبذل فى هذا المجال ، ولكننا نريد لهذه الجهود أن تنمو وتتسع ، وأن تجد المساندة المادية ، وبخاصة من الحكومات الجديدة التى يوجهها ساسة عرفوا القلم ومارسوا الكتابة قبل أن يعرفوا المناصب الرسمية . ونخص بالذكر هنا مجلة أدت خدمات جليلة فى نشر التراث الأفريقى والتعريف به وهى : مجلة Presence Africaine التى تصدر فى باريس بالفرنسية والإنجليزية منذ عام ١٩٤٧ ، وهى حاليا نصف شهرية ، فضلا عن المجهودات الفردية ، وعلى رأسها ما قام به ليوبولد سنجور شاعر السنغال ورئيس جمهوريتها الذى نشر عدداً من الدراسات والمختارات للشعر والشعراء فى أفريقيا جنوب الصحراء ، وأهمها مجموعته التى قدم لها جان بول سارتر ، وعنوانها : «منتخب للشعر الزنجى والملاجاشى الجديد» . فعن طريق هذه الجهود وغيرها نلاقى وجه القارة الحقيقى الذى غاب عنا طويلاً ، نحن أبناء الشمال ، نتيجة لعهود السيطرة الاستعمارية والفواصل المصطنعة .

وليس معنى ذلك أننا نعادى الجهود التى يبذلها المستفرقون الأوربيون والأمريكيون ، برغم ما يتخللها أحياناً من زيف وتجنّ ، ولكننا نحب وقد عادت الأرض إلى أصحابها أن يرتفع الصوت الوطنى فى التعبير عن كل قضاياه بدلاً من انصراف هذا التعبير – أو بعضه – إلى الصوت الأجنبى .

نقول ذلك تقديماً للحديث عن المجموعة الشعرية الجديدة : «شعر حديث من أفريقيا[٣٨]» .

---

(٣٨) Gerald Moore And Ulli Beier, Eds. Modern Poetry From Africa, A Penguin Book, London, 1963.

وقد ظهرت ضمن «المكتبة الأفريقية» التى تصدرها سلسلة بنجوين الإنجليزية ، وتضم منتخبات أعدها وقدم لها جيرالدمور ، وأولى بايرز من أشعار ٢٩ شاعراً ينتمون لأربعة عشر قطراً أفريقيًّا ، فيما وراء الصحراء الكبرى . وهى على الترتيب : مدغشقر (رابع جزيرة فى العالم من حيث المساحة) ، السنغال ، جامبيا (وهى محمية بريطانية تطل على المحيط الأطلسى) غانا ، نيجيريا ، الكونغو البلجيكى ، الكونغو الفرنسى ، جزر كاب فيرد (١٤ جزيرة بركانية تطل على الساحل الغربى لأفريقيا) ساوتوميه (جزيرة بركانية صغيرة فى خليج غينيا) ، أنجولا ، أفريقيا الجنوبية ، نياسالاند ، كينيا ، موزمبيق . .

وأهمية هذه المجموعة ترجع فى نظرى إلى عاملين :

الأول أنها أول مجموعة تصدر فى الإنجليزية مشتملة على منتخبات منتقاة من اللغات الأوربية الثلاث التى فرضها المستعمرون على أفريقيا وهى : الفرنسية والإنجليزية والبرتغالية .

والآخر أن مقدميها وجامعيها من المستفرقين الأوربيين المعروفين الذين بذلوا جهوداً كبيرة فى محيط الدراسات الأفريقية ، والأدبية والفنية منها بوجه خاص . . فجيرالد مور إنجليزى استهوته أفريقيا ، فرحل إليها وعاش فى نيجيريا مدرساً بمدارسها وجامعاتها . وهو عضو بهيئة تحرير مجلة (أورفيوس الأسود) ، كما نشر فى بلاده عدداً من الدراسات عن الأدب الأفريقى وكتاب نيجيريا كان آخرها كتابه القيم : (سبعة أدباء من أفريقيا) الذى صدر عام ١٩٦٢[٣٩] . أما أولى بايرز فألمانى درس الأدب بإنجلترا ، ثم رحل إلى نيجيريا حيث يشارك زميله فى التدريس بجامعة إبادان وفى تحرير مجلة (أورفيوس الأسود) . ومن مؤلفاته : شعر من يوروبا (١٩٥٩) ، الفن فى نيجيريا (١٩٦٠) ، النحت فى أفريقيا الغربية (١٩٦٢) .

وقد تصدرت المجموعة دراسة ذكية مركزة عن الشعر فى هذه المناطق الواسعة من القارة انطلق فيها الكاتبان من نقطة لخصها صحفى وشاعر من جنوب أفريقيا – يدعى لويس نكوسى – فى عبارة قال فيها :

«إن الوعى الأفريقى لا يبدأ فى الحقيقة حين يصدم المرء إذ يكتشف أنه أسود ، وإنما حين يصدم أيضاً إذ يكتشف أنه ليس أبيض» .

ويتتبع الكاتبان هذه الحقيقة فيجدانها شائعة بعيدة الأثر تجد صدى هائلاً فى مواقف عديدة . فقد لجأت فرنسا فى مستعمراتها إلى سياسة الإدماج والتذويب ، وغرست فى ذهن الفرنسى الأفريقى – أو الأفريقى المرغم على الفرنسة – إن صح التعبير – فكرة تأسيس مجتمع أبيض

(٣٩) صدرت له ترجمة عربية للمؤلف بسلسلة كتاب الهلال عام ١٩٧٧ .

حضرى ، بعد إعداداً تاما للتغاضى عن لونه فى سبيل أن يرتدى رداء الثقافة والدين والأخلاق والسلوك الذى تفرضه المدنية الغربية . فكل ما كان يبتغيه المستعمر هو أن ينسى الأفريقى المدمج أنه أسود !

غير أن هذه الفكرة لم تلبث أن لقيت إعراضاً وإنكاراً صارمين ، بل لقد أحدثت ردَّ فعل عنيفاً فى مجال الفكر والشعر على وجه التخصيص ، فيما عرف باسم نزعة « الزنوجة » التى ظهرت بعد الحرب الأولى فى كتابات المفكرين والشعراء الأفريقيين والكوبيين . وفى ذلك يقول إيميه سيزير شاعر جزر المارتينيك : « إن السواد ليس غياباً وإنما هو رفض وإنكار » . ولقد وجدت هذه النزعة أرضاً خصبة فى باريس لدى جماعات المثقفين الأفريقيين الذين رحلوا للتزود بالثقافة والعلم . وطغت على كثير من شعر سنجور ودافيد وبيراجو ديوب وشعراء الكونغو وغيرهم ممن يفكرون ويكتبون بالفرنسية . ومن ثمة يقول الكاتبان : إنه : « بدون شىء من فهمها – أى نزعة « الزنوجة » – فى أهميتها التاريخية على الأقل – يستحيل أن نرى أى شكل من الأشكال الشعرية للقارة طوال السنوات العشرين الماضية » . ولقد سبق أن أوضح ليوبولد سنجور مفهوم هذه النزعة بقوله : إنها تنحصر فى إرادة الوحدة الزنجية الروحية ، وتجميع الزنوج تحت راية المطلب الجماعى لاسترداد كرامتهم الإنسانية عن طريق التسلح بمفهوم الحضارة العالمية ذات الأساس الإنسانى الشامل ، ونبذ الفكرة العنصرية .

لكن كيف تحقق هذا فى الشعر ؟

لقد شهدت باريس فى العقد الرابع من هذا القرن نفراً من المثقفين الأفريقيين السود كان على رأسهم إيميه سيزيرو ليون داماس وليوبولد سنجور وهم الثلاثى الموهوب الذى حمل على كتفيه رسالة الشعر والزنوجة ، وكان ليون داماس شاعر غينيا الفرنسية أسبقهم إلى الظهور عام ١٩٣٧ بديوانه « الأصباغ » الذى أحرقه الفرنسيون فيما بعد ومنه :

« . . . أفلحت كراهيتى على هامش الثقافة ،
هامش النظريات ، هامش الكلام الفارغ ،
الذى حشونى به منذ مولدى ،
حتى بالرغم من أن كل ما فى ،
كان يطمح فى أن يكون زنجيًّا ،
على حين كانوا ينهبون وطنى أفريقيا . . . »

ثم ظهر سيزير بعد عامين ، وتبنى الدعوة إلى الزنوجة ، وعد أمير شعرائها . أما سنجور فقد

ظهر فى تلك الأثناء بكفاية بيانية تبعث الشجن فى نفس القارئ بدلا من أن تصدمه . وقد تأثر الثلاثة بالشعراء الفرنسيين الرمزيين والسيرياليين ، لكنهم أضافوا إليهم بساطة التكنيك وكثافة الصور .

وفى شعر سنجور تلاقى الزنوجة بأوسع معانيها ، إذ نجد : طابع التخريب الذى لحق بأفريقيا القديمة وثقافتها على يدى أوربا البيضاء ، وجفاف الغرب الحديث وحاجته إلى الصفات الأفريقية المكملة ، وجمال المرأة الأفريقية الدافئ المزهو بنفسه ، والحب والفهم العميقين لكل ما هو عظيم وباق من مآثر الغرب ، بل نجد أيضاً حاجة الشاعر نفسه إلى أن يعيش فى كلتا الثقافتين ، أو ما عناه هو بنفسه حين طلب أن يكون مزيجا ثقافياً مولداً .

وكثير من هذه الخصائص يظهر فى شعر باقى الشعراء الذين يكتبون بالفرنسية فى السنغال ومدغشقر والكونغو بقيمه .

حتى إذا انتقلنا إلى الأقطار الأفريقية التى تتحدث باللغة الإنجليزية فإننا نصبح إزاء عالم آخر مختلف تماماً لا يعتد كثيراً بالزنوجة ، ولا يعانى منها . وفى ذلك يقول مفاليلى القصصى الناقد من أقصى الجنوب :

« فى المجتمعات المتعددة الأجناس . . . لدينا الزنوجة مجرد بدعة ثقافية » ويعلل مور وباير ذلك بقولهما : « لم تتبع بريطانيا قط سياسة الإدماج الثقافى . إذ تتميز بأنها لم يكن لها سياسة ثقافية على الإطلاق » ومن ثم لم يكن هناك ما يستحق المقاومة والاعتراض عاطفياً وذهنياً ، على عكس ما حدث فى أفريقيا الفرنسية . وبرغم تحمس الكاتبين وتورطهما فى إعفاء بريطانيا من تهمة الإفقار الثقافى للقارة فالواقع أن عدم اشتداد دعوة الزنوجة فى المستعمرات الإنجليزية لا يرجع إلى سماحة بريطانيا فى مجال الثقافة بمقدار ما يرجع إلى عوامل أخرى لعل من أهمها : سطوة إرساليات التبشير الإنجليزية والأمريكية ، بالإضافة إلى سياسة بريطانيا – وأشدد هنا على وجود كلمة سياسة – نحو التوسع فى التعليم الابتدائى والمتوسط بالقدر الذى يكفى إيجاد طبقة من صغار الموظفين والكتبة فحسب . ولذلك فإن الكاتبين سرعان ما يبدو اضطراب حكمهما هذا حين يذكران أنه فى الوقت الذى كان فيه سنجور وزملاؤه ينشرون أشعارهم فى مجلات باريس الأدبية لم تكن غانا ونيجيريا تملكان من الشعر الجيد سوى القليل المتأثر بشعارات المبشرين وصلواتهم ، والقليل الآخر الذى ظهر فيما بعد فى غانا وكينيا ونيجيريا داعياً إلى توظيف الشعر سياسياً واجتماعياً وإيقاظ الشعور بالقومية . ومن ذلك ما يقوله شاعر كينيا جوموتيجا عن التدنيس الذى لحق بالأرض الأفريقية من جراء زراعة المحصولات الجديدة غير الأفريقية :

عاداتنا قبرت وامتهنت .
وكومت جانباً ، كما يكوم العشب ،
الذى كان يتحرك فوقه الراقص
لتزرع بدلاً منه المحصولات الأجنبية .
ثم نمر نحن ، وعيوننا على الأرض ،
خاضعين للأجنبى خضوع أراضينا !

وطبيعى أن يتاثر شعراء المستعمرات الإنجليزية ، كما يتأثر زملاؤهم السابقون بالتراث الفرنسى ابتداء من شكسبير إلى إزرا باوند وديلان توماس وأودن من المحدثين . ومن أبرز هؤلاء الشعراء الذين يكتبون اليوم بالإنجليزية : دى أنانج ووليامز فى غانا ، وولى شوينكا وأوكارا وفرانك إيجامو كويدى فى نيجيريا ومازيسى كوينيني فى جنوب أفريقيا .

ويثير الكاتبان بعد ذلك قضية « الروح الجماعية » فى الشعر الأفريقى وهى سمة سبق أن أشار إليها سنجور ، ويستشهدان برأى للناقد الألمانى يان هايترباى يقول فيه :

« فى الشعر الأفريقى . . . نجد أن التعبير يكون دائماً فى خدمة المحتوى . وهو ليس مسألة تعبير عن الذات مطلقاً ، وإنما هو تعبير عن شىء . . . بل إن الشاعر الأفريقى لا ينشغل بطبيعته الداخلية وفرديته .

ويعارض الكاتبان هذا الرأى بقولهما : إن سمة كهذه تميز كل الشعر الجيد فى أى مكان من العالم ، ثم يتساءلان :

« ألا يخاطب كل الشعراء البشرية ؟ » ويضيفان بأن شعراء أفريقيا يلحون على جماعية الروح الأفريقية ، ولا يتحدثون فى كل سطر عن كونهم سوداً مفاخرين بسوادهم ؛ وإنما على العكس نجد فى إنتاجهم نضجا وثقة يجعلانهما مظهراً له .

أما الشعر فى أفريقيا البرتغالية فمن رأى الكاتبين أنه دون مستوى غيره من الشعر الأفريقى : فهو لا يتعدى فى مجموعه أن يكون صرخة حزن وضياع واضحة . ذلك لأن هذه الأقاليم لا تزال فى حالة اجتماعية وسياسية تخطتها معظم أقطار أفريقيا الأخرى منذ سنوات عديدة . ومن بين هؤلاء الدودو إسبريتو سانتو فى ساوتوميه وأجو ستينوبيتو فى أنجولا وخوسيه كرافيرينا فى موزمبيق وأجوينا لدو فونيسكا فى الكاب فيرد .

حقا . . لقد أبدى جان بول سارتر – قبل سنوات – رأيه فى الشعر الأفريقى والزنوجة ، فقال : إن الشعر الزنجى هو « الشعر الثورى الحقيقى فى عصرنا » وأن الزنوجة صوت لحظة تاريخية

من نوع خاص ، سجلت انطلاق الجنس الأسود فى التعبير عن ثورته على الحكم الأبيض لكن « يان » يعارضه بقوله : إن الشعر الأفريقى الجديد ليس ثورياً على الإطلاق وإنما هو عود إلى التراث الصحيح المعتمد ، وإن الزنوجة – بغض النظر عن كونها لحظة تاريخية من نوع خاص – هى الأسلوب الذى ينبغى أن يكتب به كل الشعر الأفريقى .

ويعلق مور وباير على ذلك بقولها : إن سارتر كان على حق : فى السنوات القليلة الماضية اتضحت الدلائل على أن ينبوع الزنوجة أخذ فى النضوب ، وأن عصرها الذهبى كان إبان العقد الخامس وأوائل السادس ، أما بعد ذلك فلم يعد سيزير وداماس وسنجور منتجين ؛ وإنما خفتت أصواتهم ؛ وبالمثل لم ينشر بيراجو ديوب (الشاعر السنغالى) خلال عشرين عاما سوى مجموعة هزيلة من الشعر ، ولقى دافيد ديوب (السنغال) مصرعه بعد حفنة من القصائد لا تدل على شىء كثير سوى الموهبة .

وفى الوقت نفسه انتقلت إمارة الشعر من شعراء السنغال إلى نيجيريا وغانا .

وفى ختام هذه الدراسة يرجو الكاتبان أن تقنع هذه المجموعة أشد المتشككين بأن الشعر الأفريقى ليس موجوداً فحسب ، وإنما هو من أكثر الأشعار – مما يكتب اليوم فى أى مكان من العالم – أصالة وقدرة على التحريك والإثارة .

* * *

ثم يأتى بعد ذلك دور النماذج الشعرية التى تربو على مائدة قصيدة نقتطف منها ثلاث قصائد مختلفة من اللغات الثلاث الأوربية وهى الفرنسية والإنجليزية والبرتغالية . وأولها للشاعر ليوبولد سنجور وعنوانها :

الطوطم :

« لابد أن أخفيه فى أعمق أعماق شرايينى ،
سلنى ذاك الذى ضرب مخبأه العاصف
بالبرق والرعد
حامى حماى الحيوان ، لابد أن أخفيه
حتى لا أحطم العار :
فهو دمى المخلص الذى يطالبنى بالوفاء
إذ يحمى زهوى العارى

من نفسى ومن تقريع الأجناس
الأسعد حظا

ويلاحظ أن الطوطم هنا ذو دلالة كبيرة بالنسبة للشعوب الأفريقية فيما وراء الصحراء الكبرى ، فكل قبيلة تتخذ شعاراً أو رمزاً لها من الحيوان تحله فى منزلة أحد أفرادها ، فكأن القصيدة فى النهاية تعبير عن الاعتزاز بأفريقيا ومعتقداتها البدائية القديمة ، وتلك صفة من صفات النزعة الزنجية التى كان سنجور أحد عمدها .

أما ثانية هذه القصائد فهى للشاعر الكينى جون مبيتى الذى يكتب بالإنجليزية وعنوانها :

ناطحات سحاب نيويورك :

كانت أشعة الشمس الصفراء الواهنة المبعثرة
تتسلل إلى الأنسجة الغائمة
فتغطيها بطبقة من الشمع الشفاف .
حتى إذا أنهت الأشعة المتعرجة النهار
سعلت مداخن نيويورك
المعجونة بالدخان
وهى تنظر إلى أسفل بأبراج محنية
ثم تقيأت دموعاً حزينة
من الدخان الأسود .

وأما القصيدة الأخيرة فهى للشاعر أجوينا لدو فونيسكا من جزر الكاب فيرد ، ويكتب بالبرتغالية ، وعنوان القصيدة :

حانة على البحر :

وميض بعيد
وفنار يبصق الضوء
فى وجه الليل الأسود
كل شىء ملحى ومشتاق .
والرياح ومن خلفها الأمواج

تهز الحانة هزاً
والحانة سفينة راسية .

* * *

الحب وهان ووحشى
وسط المدى المشرعة
والانفلات من أحضان عاهرة

* * *

وفوق الهواء تتصاعد ألوان اليأس
على هيئة أورام كثيفة من الدخان
الزجاجات والكئوس والزجاجات ...
– أوه ! إن البحار ظمآن . . .

* * *

والوشم المنقوش على الجلد
ينبئ عن الألم والتظاهر بالشجاعة
اللذين تنضح بهما المغامرات فى الموانى !

* *

رجال من كل جنس ،
رجال بلا وطن أو اسم
– مجرد رجال بحر
صوتهم ملح وريح
وعيونهم التى لا يغشاها السحاب
تنعكس عليها السفن

* * *

السأم والحنين يظهران
تلوكهما غلايين قديمة معمرة . . .
يظهران ثم يختفيان
مترنحين مع السكر .

أوراق اللعب والموائد والمقاعد ،
الزجاجات والكئوس والزجاجات
ووجه مدير الحانة
يثير قديم المعارك والثارات .
وكل شيء حافل بالخطيئة
وكل شيء حافل بالنوم
وكل شيء حافل بالبحر !

هذه القصائد الثلاث – على قصرها – توضح لنا كثيراً من سمات الشعر الحديث فى أفريقيا .

ولئن كنا نعيب على هذه المجموعة صدورها عن المفهوم الاستفراقى المتخلف الذى يعزل شمالى القارة عن جنوبيها عزلاً تاماً ، ويعتبر أفريقيا هى الجزء الذى جنوب الصحراء الكبرى ، ولئن كنا نعيب عليها أيضاً مرورها مر الكرام على أثر الاستعمار البريطانى فى الثقافة الأفريقية – إنها تعد مع ذلك وثيقة هامة تدمغ كل متجن على الشعر فى قارتنا ، وتؤكد فى الوقت نفسه أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان فى هذه المناطق الواسعة من القارة جنوب الصحراء الكبرى . . خارج مجال اللغة العربية .